الذهب ومكانته
في التطور التاريخي للنقود

Gold and its place in the historical development of money

بحث تقدم به

أ.د. أحمد سامي شوكت

التدريسي في قسم العلوم المالية والمصرفية الإسلامية

كلية العلوم الإسلامية / الجامعة العراقية

Research progress

Professor Dr. Ahmed Sami Shawkat

Lecturer in the Department of Islamic Banking and Finance

College of Islamic Sciences / Al-iraqia University

E-mail: ahmed.s.shawkat@aliraqia.edu.iq

الملخص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن أهتدى بهديه الى يوم الدين وبعد، مُذ بدء الله الخليقة وإيجادهم على الأرض احتاج الناس الى نظام التبادل، وذلك لان لكل انسان حرفة معينة يزاولها كالصيد مثلاً والزراعة ورعي الحيوانات وكذاك البناء بطرقه البدائية الأولى، فاحتاج كل ذي صنعة وحرفة حاجة من شخص أخر، فالمزارع يحتاج اللحم ويحتاج مكان يؤويه، وكذاك الذي يصيد الحيوانات يحتاج الى بيت يؤويه ويحتاج الى ما يحصده المزارع، فيسر الله لهم أول طريقة بدائية للتبادل وهو ما يُعرف بنظام(المقايضة)، وهو نظام بدائي يعتمد على ان يتبادل كل فرد بان يعطي مما يحصل عليه الى فرد آخر ليعطيه من نتاج يديه، ثم تطورت المقايضة كون الشخص الذي يصطاد ويدخل في المخاطر ليس كالشخص الذي يحصد الزرع قرب بيته مما أدى الى التفكير في عنصر المخاطرة فاصبح الذي يصطاد يقدم كمية قليلة مقابل كمية كبيرة من الخضروات، واستمر نظام المقايضة الى ان وجد الانسان عنصراً معيناً ممكن ان يكون معياراً للتبادل وهي المعادن النفيسة، وأشهر معدنين عرفتهم البشرية للتبادل هما (الذهب والفضة) .

Abstract:

In the name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful.

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon the best of the prophets and messengers, and upon his family and companions and those who follow his guidance until the Day of Judgment. And after that, since Allah began creation and brought them to earth, people needed a system of exchange, because every person has a specific profession that he practices, such as hunting, agriculture, herding animals, and also building in its first primitive ways. So every craftsman and trader needed something from another person. The farmer needs meat and needs a place to shelter him, and the one who hunts animals needs a house to shelter him and needs what the farmer harvests. So Allah facilitated for them the first primitive method of exchange, which is what is known as the (barter) system. It is a primitive system that depends on each person exchanging what he obtains to another person to give him from the produce of his hands. Then barter developed, as the person who hunts and takes risks is not like the person who harvests crops near his house, which led to thinking about the element of risk, so the one who hunts offers a small amount in exchange for a large amount of vegetables. The barter system continued until Man found a specific element that could be a standard of exchange, which are precious metals. The two most famous metals known to mankind for exchange are (gold and silver

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن أهتدى بهديه الى يوم الدين وبعد، مُذ بدء الله الخليقة وإيجادهم على الأرض احتاج الناس الى نظام التبادل، وذلك لان لكل انسان حرفة معينة يزاولها كالصيد مثلاً والزراعة ورعي الحيوانات وكذاك البناء بطرقه البدائية الأولى، فاحتاج كل ذي صنعة وحرفة حاجة من شخص أخر، فالمزارع يحتاج اللحم ويحتاج مكان يؤويه، وكذاك الذي يصيد الحيوانات يحتاج الى بيت يؤويه ويحتاج الى ما يحصده المزارع، فيسر الله لهم أول طريقة بدائية للتبادل وهو ما يُعرف بنظام(المقايضة)، وهو نظام بدائي يعتمد على ان يتبادل كل فرد بان يعطي مما يحصل عليه الى فرد آخر ليعطيه من نتاج يديه، ثم تطورت المقايضة كون الشخص الذي يصطاد ويدخل في المخاطر ليس كالشخص الذي يحصد الزرع قرب بيته مما أدى الى التفكير في عنصر المخاطرة فاصبح الذي يصطاد يقدم كمية قليلة مقابل كمية كبيرة من الخضروات، واستمر نظام المقايضة الى ان وجد الانسان عنصراً معيناً ممكن ان يكون معياراً للتبادل وهي المعادن النفيسة، وأشهر معدنين عرفتهم البشرية للتبادل هما (الذهب والفضة)، يقول الغزالي (رحمه الله) في إحياء علوم الدين :(النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره)، ويقول آرثر لويس في نظرية النمو الاقتصادي: (كان اكتشاف النقود واحد من الإنجازات الكبرى للبشرية لا تقل أهميته عن أهمية اكتشاف الإنسان حروف الهجاء، أو اكتشافه وسائل الحصول على النار حسب مشيئته ورغبته، فلولا النقود لتحول تيار التجارة إلى خيط رفيع ولولاها لاختزنت كل عائلة جميع ما تملك بدلا من أن تشتري حاجاتها من مخازن مركزية ولولاها لظلت إمكانات القرض والاستثمار إمكانات تافهة) .

ترك الانسان نظام المقايضة لعيوبه الكثيرة وكونه نظام بدائي، وانتقل الى نظام التبادل المبني على العدالة وهو نظام المعدن الثمين، ثم طور الانسان نظام التبادل بالمعادن النفيسة الى نظام سك النقود، فقام بإذابة هذه المعادن وتحويلها الى عملات معدنية يكتب عليها ما شاء من عبارات او حتى يضع عليها صورة من يشاء من الملوك والحكام، ومع تطور حياة الانسان تطور تعامله مع المعادن النفيسة، ساعدها في ذلك ندرتها لان الشيء اذا كثر وجوده قلت قيمته (كمعدن الحديد او النحاس مثلاً) وانتقل هذا المعدن النفيس الذهب من كونه عنصراً للتبادل

البسيط الى كونه شيء يُقيم به الأشياء الأخرى ، وكذاك ليكون زينةً للنساء ومن ثم اصبح عنصراً اساسياً لعد الانسان من الأغنياء اذا امتلكه وحازه ، وفي الوقت الحاضر يقيم اقتصاد الدول بما تمتلكه من خزين من الذهب كونه عنصراً ثابتاً لم يتبدل الى ان يكون شيئاً بخساً منذ اكتشافه الى يومنا هذا .

نجح هذا المعدن النفيس (الذهب) ليكون معياراً لباقي الأشياء وليكون أفضل ما يخزنه الانسان ويدخره كونه يمتلك وظائف النقود الخمسة ((وسيط مبادلة، مقياس قيم، وحدة حساب ومحاسبة، مستودع قيم، أداة دفع مؤجلة) والى يومنا هذا إذا اختلف شخص مع آخر في دين قديم رجعوا ليقيسوه بالذهب.

لأهمية هذا المعدن النفيس توجه الانسان على مر العصور لادخاره كونه شيء ثابت القيمة لا يتغير، وفي العصر الحديث انتشر موضوع التداول والتجارة في الذهب في التعاملات العاجلة والآجلة، ولكل امر من هذه الأمور احكامه وتشريعاته الدينية والقانونية.

سأبحث في هذه الأوراق البسيطة تطور نظام المبادلات على عجالة، ثم أقف عند هذا المعدن النفيس واهميته الاقتصادية على مر العصور، ثم انتقل الى بيان بعض الاحكام الشرعية المتعلقة بتداول الذهب والتجارة فيه.

المبحث الأول
التعريف بمصطلحات البحث

لغةً: ذهب: الذهبُ: التبرُ، وأهل الحجاز يقولون: هي الذهب، وبلغتهم نزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١] ، ولولا ذلك لغلب المذكر المؤنث، والقطعة منها: ذهبة، وغيرهم يقول: هو الذهب. والمذهب: الشيء المطلي بماء الذهب[٢] .

وهو عنصر كيميائي، رمزه «AU»، وعدده الذرّي ٧٩، والذهب، اسمه على القاعدة الذُّهاب من الذهب، وقد سُمّي في الكثير من اللغات للونه وبريقه، فكلمة الذهب في العربية مكوّنة من ذال وهاء وباء وهذا الأصل يدلّ على حسن ونضارة .

ومنذ اكتشاف الذهب عُرِفَ للزينة والتباهي، والمعروف أن الإنسان يتعب ويبذل ما في وسعه لتحصيل أسباب الزينة، وفي كثير من الأحيان يقدمها على ما هو ضروري من ضروريات الحياة، فالرجل قد يضيق على نفسه في طعامه وشرابه ليوفر لنفسه ثمن لثوب فاخر يلبسه يتزين به في الأعياد والمجامع، وكذلك المرأة تحرص على الزينة أكثر من غيرها، وتؤثرها على جميع اللذات الأخرى، فقد تحرم نفسها من بعض اللذات كالطعام، والشراب لتشتري لها قطعة من ذهب، تتزين بها[٣].

وتعتبر غريزة حب التزين والتجمل من أعظم أسباب العمران، وإظهار استعداد الإنسان لمعرفة سنن الله وآياته في الكون فهي سبب لتوسع البشر في أعمال الزراعة، والملاحة، والصناعة، فالزراع يتفننون في تزيين حدائق البيوت بأنواع الزهور والأشجار، والغواصون يخاطرون بأنفسهم لاستخراج اللؤلؤ والمرجان من أعماق البحار، وعمال الصياغة والحياكة والتطريز والنقش يبذلون جهدهم في سبيل إتقان، أعمالهم وتطويرها.

---

(١) سورة التوبة / من الآية (٣٤) .

(٢) كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، ت (١٧٠) هـ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ٤/ ٤٠ .

(٣) زكاة حلي الذهب والفضة والمجوهرات ، الدكتور محمد عثمان شبير ، مكتبة الفلاح / الكويت ، ط / ١ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ ، ص ٩ – ١٠ .

وللزينة أثر كبير في تنمية العلاقات الاجتماعية بين الناس، فإن النفوس جبلت على حب الجمال والنفور من القبح والزينة تعمل على إيجاد المودة والمحبة بين الناس، كما أن عدم التزين والتجمل يؤدي إلى النفرة والفرقة وتفكك المجتمع.

المبحث الثاني
التطور التاريخي للتبادل التجاري نظام المقايضة

يعتبر نظام المقايضة من أول الأنظمة الاقتصادية للتبادل وقد يعده البعض نظاماً سيئاً وفاشلاً، ولكنه يعتبر مرحلة متطورة للإنسان، وللحياة الاقتصادية أيضا، بحيث أصبح الأفراد ينتجون سلعا تزيد عن حاجتهم إليها، فبدأت الحاجة تظهر إلى الفائض من السلع، وازدادت الرغبة في تبادل الفائض من الإنتاج حتى ظهر السوق في شكل مكان يعتاده كل من يمتلك فائضا من منتوج معين، وفي حاجة إلى منتوج آخر، والبحث عمن يبادله هذا الفائض عن حاجته بفائض آخر هو في حاجة إليه[1]، وبالتالي فإن المقايضة تعني مبادلة سلعة بسلعة أخرى أو خدمة بخدمة بصورة مباشرة بدون استخدام وسيط نقدي، وذلك مثل استبدال قمح بخروف أو خدمة زراعة مقابل خدمة سقي، أو خدمة حصاد لقاء جزء من هذا المحصول الذي تم حصاده.

أما قبل مرحلة المقايضة فهي توحي باقتصار العملية الإنتاجية للأفراد على الإكتفاء الذاتي لكل منهم، أي أن الفرد كان ينتج كل ما يحتاجه دون زيادة عن ذلك تكون موضوعا للتبادل، وعندما بدأ التعاون بين الأفراد ضمن قبائل تزايد الإنتاج وعرف الإنسان نوعا من التخصص وتقسيم العمل البسيط، فبدأت كل قبيلة تتقن وتتخصص في عمل معين، وتنتج ما يزيد عن حاجتها، وتحقق فائضا من الإنتاج لسلعة معينة أو عدد قليل من السلع، في حين نجد أن الفرد أو القبيلة في حاجة إلى سلع أخرى.

ومن هنا ظهرت المقايضة كطريقة أو كنظام يقوم بتبادل الإنتاج وفقا لحاجات الأفراد والقبائل وهو الأمر الذي يسمح بالتخصص ورغبة الأفراد في تبادل السلع لتحقيق إشباع متنوع، وهذا يظهر مدى تحول الهدف من الإنتاج أي من مجرد الإكتفاء الذاتي للفرد أو للقبيلة فقط إلى الإنتاج من أجل التبادل في السوق.

فقد كان التوزيع للإنتاج تلقائيا وداخليا حسب النظام الاجتماعي السائد في تلك العصور البدائية الأولى، لكن احتياجات الأفراد لم تظل ثابتة ورغباتهم جامدة، ثم إن أساليب الإنتاج لم تبقى بدائية، إذ تغيرت الرغبات، وتطورت أساليب وفنون الإنتاج، فانتقل الإنسان إلى مرحلة

(١) أسس ومبادئ النقود والبنوك محمود محمد نور كلية التجارة، جامعة الأزهر، مصر، بدون تاريخ، ص ٩.

الإنتاج المتخصص، لينتقل من اقتصاد اللامبادلة إلى اقتصاد المبادلة والمقايضة[١] .

لقد تمثل هذا التطور في تخصص كل جماعة أو قبيلة في إنتاج سلعة أو مجموعة من السلع، بل أن التخصص قد مس حتى نفس الجماعة ، و هو ما يسمى بتقسيم العمل ، فالمشتغل بالزراعة يبادل أو يقايض بالقمح الزائد عن حاجته مع مشتغل أو متخصص آخر في الصيد ، كما أن المتخصص في الصيد الذي يكون لديه فائضا في اللحوم يحتاج إلى مشتغل آخر في الجلد و هكذا.

فالمقايضة إذن هي مبادلة سلعة بأخرى بشكل مباشر بدون نقود، وكل المؤرخين يقولون بأن الحضارة بدأت بهذه المبادلات المباشرة بدون نقود، وهو التبادل الذي تأخذ فيه سلعة مكان أخرى عند التبادل[٢] .

لكن وسائل الإنتاج أخذت في التطور وزادت كمية الإنتاج وتنوعت المقايضة وأصبحت تعيق عملية وحجم المبادلات فتولدت عدة صعوبات يمكن إيجازها فيما يلي:

١) صعوبة التوافق المزدوج في رغبات المتبادلين: لا تتوقف عملية التبادل في ظل نظام المقايضة على رغبة شخص واحد للحصول على سلعة أو خدمة، بل ينبغي أن يكون هناك شخص آخر يملك هذه السلعة ويرغب في مبادلتها، ولا يكفي هذا الشرط لكي تتم المبادلة، بل لا بد للشخص الذي تكون لديه هذه السلعة أن يكون مستعداً للتنازل عنها مقابل سلعة أخرى عند الشخص الأول.

فمثلا لنفترض أن شخصا لديه سلعة قمح يريد مبادلتها بسمك فإنه لا بد من توافر الشروط التالية: وجود شخص آخر يملك سمكا، وجود الرغبة عند هذا الشخص لمبادلة السمك مقابل القمح، ومن بين هؤلاء الأشخاص شخص يطلب في السمك نسبة تبادل مناسبة من القمح.

، وتعتبر هذه الشروط في غاية الصعوبة نظرا لما تتطلبه من توافر رغبتين في آن واحد، أي رغبة لمن يريد مبادلة السمك مقابل تنازله عما لديه من قمح، ورغبة المتنازل عن السمك مقابل الحصول على القمح، فينبغي إذا تحقيق التوافق في رغبات المتعاملين، لأنه قد يوجد شخص يريد قمحا ولكنه لا يمتلك سمكا، وبالتالي يكون من الضروري البحث عن إيجاد شخص آخر أو أكثر من ذلك لكي تتم عملية المبادلة.

---

(١) الاقتصاد النقدي والمصرفي مصطفى رشدي شيحة ، الدار الجامعية، ١٩٨٥، ص ٦٢ وما بعدها.

(2) Henri Guitton, La monnaie, Dalloz, 3eme ed, 1974, p22.

والواقع أن هذا التبادل يكون ممكنا وسهلا في ظل مجتمع اقتصادي بدائي يقوم على أساس الإنتاج من أجل الإكتفاء الذاتي، أما في النظام الاقتصادي القائم على التخصص وتقسيم العمل ويكون الإنتاج ليس بهدف الإكتفاء وإنما بهدف التبادل ففي هذه الحالة يكون عدد السلع مضاعفا في الأسواق، وتتسع رقعة التبادل، ويصبح التوافق المزدوج بين الرغبات الذي ينتشر أكثر في نظام المقايضة أمرا في غاية التعقيد لما يشترطه من وقت وجهد للبحث عن هذا التوافق لإتمام عمليات المبادلة.

٢) صعوبة تحديد نسبة التبادل: وهذا يعني الإفتقار إلى وحدة عامة يمكن بمقتضاها قياس وتحديد قيم السلع و الخدمات، ففي نظام المقايضة تكون كل سلعة لا تتحدد قيمتها في السوق بشكل بسيط وسهل ككمية واحدة بل يجب أن تتحدد قيمتها في أشكال عديدة من السلع و الخدمات الأخرى ، ولكي تتم هذه المقايضة يجب معرفة المعدل أو النسبة لكل السلع والخدمات المعروضة في السوق ، وهذا أمر صعب جدا، بل يصل إلى الاستحالة التامة إذا تعددت السلع والخدمات، و يقصد بتحديد نسب التبادل إيجاد طريقة بسيطة ودقيقة يجري بواسطتها قياس قيمة كل سلعة بالنسبة لكل من السلع الأخرى.

٣) صعوبة تجزئة السلع: بالإضافة إلى الصعوبات السابقة تضاف صعوبة تجزئة السلع في نظام المقايضة، فعندما يملك أحد طرفي المقايضة سلعة كالحمص ويرغب في مبادلتها بقمح فإن المبادلة قد لا تطرح إي مشكلة لأن كلا من الحمص والقمح قابل للتجزئة، وبالتالي عندما تكون بعض السلع صغيرة الحجم أو يمكن تجزئتها بسرعة إلى وحدات صغيرة فإن هذا لا يطرح مشكلا كبيرا، ولكن المشكلة تحدث عندما نكون أمام سلع أخرى غير قابلة للتجزئة لكبر حجمها وارتفاع قيمتها، فإذا كان الشخص يملك حديقة ويرغب في مبادلتها بحصان وخروف وسمك فإنه في هذه الحالة فإن نظام المقايضة يقف عاجزا أمام حل هذه المشكلة وخاصةً في توفير هذه السلع الثلاث (حصان وخروف وسمك) في آن واحد ومن طرف واحد، وإذا توفرت لدى شخصين أو أكثر فكيف يمكن تجزئة الحديقة بين مجموعة أشخاص، وهكذا فإن صعوبة تجزئة بعض السلع غالبا ما تقف عائقا أمام إتمام عمليات المقايضة.

٤- صعوبة تخزين السلع: منذ القديم عرف الإنسان التخزين والاحتياط والادخار للمستقبل، وبما أن الإنسان كان يعيش في نظام المقايضة وفي ظل غياب النقود فإنه كان يلجأ إلى السلع لتخزينها عندما يبقى له جزء من السلع بعد المقايضة، وهذا المخزون السلعي يتطلب عناية كبيرة، ويحتاج إلى مساحة واسعة وإلى حراسة وفي هذا تكلفة باهظة الثمن من جهة، وضعف إمكانيات

التخزين آنذاك من جهة أخرى، وهو ما يجعل قيم السلع تتدهور، ولا تحتفظ بقيمتها الأولى[١] .

٥) صعوبة إيجاد وسيلة للمدفوعات الآجلة: تكون أداة المدفوعات الآجلة في نظام المقايضة هي السلع، وبما أن هناك صعوبة في تخزينها والحفاظ على قيمتها فإن وسيلة الدفع في المعاملات الآجلة عندما تعتمد على السلع تكون تلك السلعة عرضة للمخاطر كانخفاض أو ارتفاع قيمتها في عمليات المقايضة مما يجعل أحد الطرفين يتحمل الخسارة عند الوفاء بالدين.

تعرفنا فيما سبق على نظام المقايضة كبداية للإنسان في معرفته لطرق التبادل، فقد كان هذا النظام صالحا في ظل اقتصاد بسيط وبدائي قائما على الاكتفاء الذاتي والتبادل البسيط، و لكنه عرف صعوبات عديدة تم تحليلها وكما فشل في وجه التطورات التي حصلت في زيادة الإنتاج واتساع رقعة التبادل التجاري، و بدأ الإنسان يبحث للتغلب على عيوب نظام المقايضة و لإيجاد طرق أكثر ملاءمة، وكانت أول خطوة للتغلب على صعوبات المقايضة أن اهتدى الإنسان إلى استخدام سلعة معينة تلعب دور النقد، وفي هذ المرحلة كان كل مجتمع يتخذ سلعة من السلع الشائعة والمستهلكة كنقد, فاتخذ الصينيون الحرير، وفي الهند استعملت الماشية كنقود ، بينما استعمل قدماء المصريين القمح كنقود، واتخذت مجتمعات أخرى أنواعا من الخرز و الأحجار الكريمة، كما صنعت النقود من الصدف و المعادن غير النفيسة مثل الحديد، النحاس، البرونز[٢].

وقد كان من نتيجة استعمال بعض السلع كنقود كوسيط للمبادلة التخلص من بعض صعوبات المقايضة مثل صعوبة التوافق المزدوج في رغبات المتعاملين، كما اختفت صعوبة نسبة تبادل استخدام سلعة معينة كنقود وأصبح لكل سلعة نسبة تبادل واحدة بينها وبين النقود السلعية والتي تعتبر مقياسا للقيمة، وتحظى بقبول الناس في معاملاتهم اليومية.

اما صعوبات المقايضة الأخرى التي أعاقت المبادلات مثل صعوبة تجزئة بعض السلع ، وعدم قابليتها للتخزين وعدم إيجاد وسيلة للمدفوعات الآجلة فلم تتمكن النقود السلعية القضاء عليها فمثلا عند استخدام بعض السلع كنقود لم يكن بعضها قابل للتجزئة ، كالماشية التي استعملت في العصور القديمة وكان يطلق اسم Pecus على هذه النقود في اللغات اللاتينية[٣]، كما أن بعض السلع عرضة للتلف ويحتاج تخزينها إلى تكاليف كثيرة ولم تستطيع النقود السلعية أن تكون وسيلة للمدفوعات الآجلة وهناك أسباب عديدة جعلت مرحلة النقود السلعية تفشل في توسيع المبادلات

(١) اقتصاديات النقود والبنوك حافظ محمود شلتوت ، جامعة الزقازيق مصر ١٩٩٠ ، ص ١٦.

(٢) اقتصاديات النقود والمصارف ربيع محمود الروبي ، دار الحقوق .مصر١٩٨٦ ، ص ٢٥ ، بتصرف.

(٣) اقتصاديات النقود والبنوك حافظ محمود شلتوت ، جامعة الزقازيق مصر ١٩٩٠ ، ص ١٨.

وتسهيل أدائها وهي :

١- أن السلع التي كانت منتشرة آنذاك لم تحظى بالقبول العام بين جميع أفراد المجتمع ولم يجتهدوا في الحصول عليها.

٢- أن السلع التي كانت منتشرة كانت تحل محل النقود تتعرض للتلف والنقص في قيمتها.

٣- أن هذه السلع لم تكن متجانسة الوحدات.

٤- أن السلع التي استعملت لم تتميز بالثبات النسبي في قيمتها.

٥- أن النقود السلعية لم تكن قابلة للتجزئة لشراء بعض السلع الصغيرة.

٦- إن النقود السلعية لم تتميز بخاصية هامة هي سهولة الحمل والتخزين.

ومن المعلوم أن هذه الأسباب هي التي لم تجعل النقود السلعية تؤدي دورها بشكل خال من العوائق والتي كانت أول خطوة في طريق الإنسان لاكتشاف النقود، فقد ذكرنا أن الحرير والماشية والأحجار الكريمة والتبغ , كل هذه السلع استعملت في أعقاب الحرب العالمية الثانية في ألمانيا، والتي يمكن أن تكون عرضة للتلف وغير قابلة للتجزئة، ولا تستطيع أن تحافظ على قيمتها نسبيا، كما أنها لم تكن مقبولة بين جميع المتعاملين، وحتى إن كانت مقبولة من طرف جماعة فلا تكون معروفة لدى الجماعات الأخرى، وبالتالي فإن مرحلة النقود السلعية لم تتوفر على الشروط التي تجعل من هذه السلع تؤدي دور النقود، وبدأ الإنسان يبحث عما يخلصه من عيوب المبادلات التي ما زالت تحول دون قيام بعض المبادلات الأخرى، و بدت الحاجة إذا إلى نوع آخر من السلع تحل محل النقود، وتتوفر فيه ميزات النقود، وهذا مما أدى الى استعمال النقود المعدنية.

المبحث الثاني

المطلب الاول: بداية النظام النقدي

انتقل الانسان الى إيجاد عملية تيسر له عملية التبادل بإيجاد شيء يعتبر مقياساً للتبادل للتخلص من مشاكل المقايضة، فانتقل الانسان الى مرحلة النقود، ويمكن تعريف النقود بأنها «أي أداة أو وسيلة» يمكن من خلالها تبادل السلع والخدمات وسداد الدين، وفيما يلي نستعرض وظائف النقود[١] :

أولاً) وسيلة للتبادل: قبل استخدام النقود، كان هناك ما يعرف بنظام المقايضة (Barter System)، والذي يتم من خلاله مبادلة سلعة أو خدمة مقابل سلعة أو خدمة أخرى. ونظراً لصعوبة التعامل مع مثل هذا النظام، والذي يتطلب توافق الرغبات بين الأطراف المشتركة في عملية تبادل السلع والخدمات، وكذلك صعوبة تجزئة السلع التي نقوم بمقايضتها، فقد تم استخدام سلعة محددة كالذهب والفضة، لكي تكون وسيلة التبادل والحصول على السلع والخدمات المختلفة. ونظراً للصعوبات المرتبطة بالتعامل مع الذهب والفضة، كالوزن الثقيل واحتمال السرقة، فقد اتجه الأفراد إلى استخدام الأوراق النقدية والمعادن الرخيصة، من أجل استخدامها كوسيط لتبادل السلع والخدمات المختلفة، وذلك بسبب سهولة حملها وانخفاض تكلفة تصنيعها.

ثانياً) مقياس للقيمة: أن نظام المقايضة يتطلب معرفة الأسعار النسبية لجميع السلع والخدمات الموجودة في الاقتصاد. فلنفترض وجود ثلاث سلع في الاقتصاد (A, B, C)، فإننا نحتاج إلى معرفة أربعة أسعار نسبية بين هذه السلع. أما وجود (٥) سلع، فإن ذلك يتطلب معرفة (١٠) أسعار نسبية على الأقل. إلا أن وجود النقود حل مشكلة تعدد الأسعار النسبية بين جميع السلع والخدمات، حيث تم اعتبار النقود وحدة الحساب، والتي من خلالها نستطيع المقارنة بين أسعار السلع والخدمات المختلفة.

ولكي يستطيع الأفراد استخدام النقود في عملية تبادل السلع والخدمات، لا بد من توفر شرطين أساسيين: أولاً صفة الإلزام القانونية للنقود والمدعومة من الحكومة، وثانياً ثقة الأفراد في قبول

(١) النقود الإسلامية كما ينبغي ان تكون ، بحث للدكتور عبد الجبار حمد عبيد السبهاني، كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية ، جامعة أهل البيت / عمان، ص ١٣ -١٧، النقود في الاقتصاد الإسلامي ، للأستاذ الدكتور رفيق يونس المصري، دار المكتبي/ القاهرة ، ط / ١ ، ٢٠١٣ ، ص ١٥.

النقود لإتمام عملية تبادل السلع والخدمات.

ثالثاً) النقود كوسيلة للمدفوعات المؤجلة: بمجرد أن يصبح النقد مقياسا للقيمة ووسيط للتبادل فإنه لا يمكن تجنب أن تصبح وسيلة المدفوعات المؤجلة أو الدفع في المستقبل فالنظام الاقتصادي الحديث يتطلب وجود قدر كبير من العقود التي يكون فيها الدفع مستقبلي ومعظمها عقود لدفع أقساط وديون يحدد فيها الدفع في المستقبل بعدد من الوحدات النقدية هذا وتعتبر النقود وسيلة جيدة للدفع المؤجل طالما بقيت تحتفظ بقوتها الشرائية الخاصة بها.

رابعاً) النقود كمخزن للقيمة: بمجرد أن استخدمت النقود كوسيلة للتحاسب وأصبحت مقبولة قبولا عاما كوسيلة للدفع فلا شك أنها سوف تستخدم على نطاق واسع كمخزن للقيمة فحامل النقود في واقع الأمر إنما هو حامل لقوة شرائية عامة يستطيع أن ينفقها عبر الزمن للحصول على السلع التي يرغب في شراءها في الوقت المناسب وهو يعلم أنها ستكون مقبولة في أي وقت مقابل أي سلعة أو خدمة يريدها لذلك فالنقود تعتبر مخزن جيد للقيمة والتي بواسطتها يمكن مواجهة حالات الاستعجال غير المتوقعة ولدفع الديون المحددة بواسطة النقود.

المطلب الثاني: الذهب واهميته التجارية

الذهب هو معدن ثمين، يمتاز بمرونته وقابليته للسحب ومقاومته للتآكل، وقد تم اكتشافه لأول مرة في مجاري الأنهار، ولكن سرعان ما أصبح رمزاً للملكية في معظم ثقافات العالم، حيث تم استخدامه للزينة منذ العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً.

يُعتبر الذهب فلزا ليّنا إلى حدّ ما، ومن هنا كان الاختبار القديم للعملات الذهبية عن طريق العضّ، وقد جعلت هذه الخصيصةُ الذهبَ مع جمال لونه مادة مرغوبا فيها للزينة، لكنّه كان غير ذي فائدة لأي شيء آخر، وقد تطوّر حديثا استعمال الذهب في صناعة الوصلات الكهربية لمقاومته للصدأ كما أُستعمل لتكسية الأسنان.

تشير الدراسات إلى أن أكبر منجم للذهب موجود في إندونيسيا ويقدر احتياطي الذهب العالمي بحوالي ١٨٦ ألف طن حتى العام ٢٠١٠، وللذهب الخالص لون أصفر قوي مع مسحة برتقالية، وقد اكتشف علماء الآثار تحفا ذهبية ومجوهرات رائعة يعود تاريخها إلى عهد السومريين عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وذلك في القبر الملكي في أور "جنوب العراق حاليا". كما أن صاغة الذهب في حضارة الشافين في بيرو صنعوا الأواني والتحف الذهبية بواسطة طرق الذهب ومزجه، منذ عام

١٢٠٠ قبل الميلاد[١] .

لقد اكتشف الإنسان منذ قديم الزمان العديد من المعادن، ومن هذه المعادن: الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، فمعدن الذهب هو من أوائل المعادن التي عرفها الإنسان في مراحل مبكرة من تاريخ البشرية، ويقول بعض المؤرخين بأن الإنسان قد اكتشفه في العصر الحجري الحديث، وطريقة اكتشاف الإنسان للذهب غير معروفة، وقد اشتهر الذهب عند العديد من الحضارات الإنسانية التاريخية، ومنها: الحضارة الفرعونية التي قامت في مصر، فقد عرف الفراعنة الذهب، وحفروا الكثير من المناجم وقاموا باستخراجه منها، وقاموا بعد ذلك بتصنيعه وتشكيله، وإدخاله في العديد من الصناعات، ومن الحضارات الإنسانية القديمة الأخرى التي اشتهر فيها استخدام الذهب: حضارة ما بين النهرين في العراق.

استخدم الانسان الذهب منذ اكتشافه في مجالات شتى، لكن ما يهمنا في دراستنا هو استخدامه في عمليات التبادل التجاري، حيث اصبح الذهب منذ بدء اكتشافه من اهم العناصر التي يعتمد عليها الانسان في تقييم الأشياء واعتباه اساً للتبادل، ومن اهم الأمور التي أدت الى كونه العنصر الأهم في التبادل التجاري هو (ندرته) اذ ان أي شيء في هذه الحياة (اذا قل وجوده غلا ثمنه) فكونه نادر وقليل التواجد جعله من اثمن الأشياء والمقتنيات في التعامل العالمي ، وكذلك من الأمور الأخرى كونه يسهل حمله ونقله، وذلك لأنه يعتبر مما خف حمله وغلا ثمنه ، اذ انه اليوم يعتبر من اغلى المعادن في العالم، وكذلك من الأمور المهمة التي أدت الى هيمنة الذهب منذ اكتشافه الى الان هو ان سعره لم يتذبذب كونه مستقر لا ينخفض ، بل دائماً مستقر او الى ارتفاع ، نتيجة كل هذه الأمور نرى ان الانسان توجه الى اقتناء الذهب وكنزه والاحتفاظ به.

أما أهم العوامل المؤثرة على أسعار الذهب في العالم فهي باختصار[٢] :

أولا: وضوح مستويات ارتفاع وانخفاض أسعار الذهب على مدار سنوات عديدة.

ثانيا: استخدامات الإنتاج العالمي من الذهب.

ثالثا: مصادر المعروض الذهبي خلال ال ١٠ سنوات الأخيرة.

رابعاً إنتاج الذهب المستخرج من مناجم الذهب.

خامسا: اتجاهات الطلب على الذهب لأغراض المضاربة.

سادساً: أثر التغيرات معدل الفائدة على سعر الذهب.

(١) الذهب واقعه وتوقعاته ، قسم البحوث والدراسات الاقتصادية ، منتدى الاعمال الفلسطيني / ٢٠١١ ، ص ٢ .

(٢) الذهب واقعه وتوقعاته ، قسم البحوث والدراسات الاقتصادية ، منتدى الاعمال الفلسطيني / ٢٠١١ ، ص ٤ .

وتعد سويسرا موطنا لتخزين الذهب الذي يعد إحدى ثروات الأمم، كما توجد فيها خزنات سرية، إحداها مدفونة تحت جبال الألب السويسرية، ويوجد فيها ما يعادل مليارات الدولارات من الذهب المملوك لأشخاص، ولم يسبق أن صور من قبل، إلا أن "غرانت ويليامز" وفريقه حصلوا على إذن لزيارة أحد أكثر مواقع العالم سرية، ليُري المشاهدين المدى الذي يصل إليه البشر لحفظ هذا المعدن الثمين، فهذه هي أكبر خزنة سرية في العالم، وهنا يخزن الذهب للعائلات الثرية وللمؤسسات والمصارف وحتى المصارف المركزية، في هذه الخزنة توجد عدة نقاط أمنية للتفتيش والتأكد من هوية الأشخاص، علينا السير عدة كيلومترات للوصول إليها، وهي الخزنة الوحيدة في العالم المقاومة للقنابل النووية والهزات الأرضية والهجوم بالغاز(١).

يعتبر الذهب معدن نفيس يكتسب قوته من نفسه، أما سائر العملات الأخرى فتكتسب قوتها من قوة الدولة، وما لها من حضور اقتصادي، ولاشك أن ما يكتسب قوته بنفسه أعظم متانة وأكثر أمنًا من عملة ورقية تكتسب قوتها بالواسطة، ولهذه الأهمية رأى (جرينسبان) مدير البنك المركزي الأمريكي الأسبق أنه لا يمكن حماية الأوراق النقدية إلا بربطها بالذهب، حيث قال: (إن في غياب نظام الربط بالذهب لا توجد طريقة لحماية المدخرات من المصادرة عن طريق التضخم، إنه لا يوجد هناك مستودع افضل من الذهب)، وهو يدل على أهمية ربط العملات بالذهب، وكونه مستودعًا أميناً للثروة النقدية، وهذا لا يعني- بطبيعة الحال- أن هذا هو العامل الوحيد المؤثر في استقرار العملة، فالدولة بما تنعم به من استقرار سياسي وأمني، وما لديها من ناتج محلي، ومخزون احتياطي كبير، وغير ذلك مما قد لا تفصح عنه الدولة، له دوره بلا شك في ثبات العملة واستقرارها(٢) .

نتكلم الان عن المحور المهم وهو دور الذهب في عملية التبادل التجاري، لندرته واهميته ومكانته عند الناس استخدم الانسان الذهب كمعيار للتبادل ثم بدا بسكه واستخدامه كعملة نقدية، طبعاً مع استخدام الفضة والمعادن الأخرى إلا ان الذهب كان هو الأفضل والاغلى والاهم، وعندما بُعث النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وبدأت شريعته تملأ الأرض رحمةً وعدلاً بشرع الله العظيم نرى ان التشريعات القرآنية وهديه (عليه الصلاة والسلام) قد اهتما بموضوع الذهب والنقد اهتماماً بالغاً، وسنسلط الضوء في عجالة على نقاط مهمة وهي:

(١) تقرير من موقع الجزيرة الوثائقية بتاريخ ٩ / ١١ / ٢٠٠٢ م .

(٢) الذهب مستودع أمين للثروة النقدية، بحث منشور للدكتور يوسف بن أحمد القاسم، أستاذ الفقه المساعد بالمعهد العالي للقضاء، ص ٣ .

١) كون النقود (الذهب والفضة) حاكمين لغيرهما: قال ابن القيم (رحمه الله) : (أثمان ـ أي الدراهم والدنانير ـ لا تُقصد لاعيانها، بل يُقصد بها التوسل الى السلع، فإذا صارت في نفسها سلعة تقصد لاعيانها فسد أمر الناس ، وهذا معنى معقول يختص بالنقود لا يتعدى الى سائر الموزونات)[١] قال الغزالي (رحمه الله): (فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدر الأموال بهما، فيقال هذا الجمل يسوي مائة دينار، وهذا القدر من الزعفران يسوي مائة، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما، ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر، فإذن خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء، لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما، ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة ، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوبا، فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلا، فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء)[٢] فالشرع اعتبر ان هذين العنصرين لا يعدان شيء ولكن كل شيء يمكنك الحصول به عن طريقهما.

٢) قال تعالى: ﴿ ... وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾[٣] وهذا الأمر هو تكملة للمسألة الأولى فالتشريع اعتبر ان الذهب والفضة هما أساس الحياة وبهما يمكننا الوصول لكل شيء، لذلك حرم كنزهما وعدم تداولهما، واعتبر كنزهما وعدم التداول من الكبائر.

٣) أن الأموال بحد ذاتها لا تولد مالاً فواجب على من أراد توليد المال (الربح) ان يتاجر ويتعامل في الأسواق ليتربح، ولذلك حرم الله الربا وعده من الكبائر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ ﴾[٤] ، فالفائدة في نظر الإسلام حرام

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابي عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية ت (٧٥١)هـ ،دار الكتب العلمية ، ط/١ ، ١٤٤١ هـ ، ٢ / ١٠٥ .

(٢) إحياء علوم الدين لابي حامد الغزالي ت (٥٠٥) هـ ، دار ابن حزم / بيروت لبنان، ط / ١ ، ٢٠٠٥ م .، ٤ / ٩١ .

(٣) جزء من الآية (٣٣) من سورة التوبة

(٤) سورة البقرة آية (٢٧٧ ، ٢٧٨)

كونها تكونت من راس المال وبلا جهد وعمل.

٤) حثت الشريعة العظيمة على الاستثمار ومداولة المال وعدم تجميده، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة)[1].

(١) سنن الترمذي محمد بن عيسى الترمذي ت (٢٧٩) هـ ، مكتبة البابي الحلبي / مصر ، ط/ ٢ / ١٩٧٥ م ، ٣ / ٣٣ .

النتائج

وفي ختام بحثي هذا استخلص منه النتائج الآتية:

١) مر الانسان اثناء محاولاته بدء حياته التبادلية بمراحل عدة، كانت أولها وأهمها المقايضة، إلا ان تطور عقلية الإنسان التجارية وكثرة صعوبات المقايضة جعلته ينتقل الى المرحلة التالية.

٢) اكتشف الإنسان المعادن واستخدمها استخدامات عدة، وما يهمنا منها هو استخدامها كمقياس للقيمة التبادلية، وكمخزن للقيمة.

٣) كان الذهب وما زال من اهم المعادن وأثمنها، وما زال الانسان يهتم بامتلاكه ويعده ذخيرة مهمة على مر الزمان.

٤) أهل العلم عدوا النقدين ليس بشيء ولكن كل شيء يمكنك الحصول به عن طريقهما لانهما حاكمين على غيرهما.

٥) حثت الشريعة الإسلامية على تداول المال واستثماره وعدم تجميده، كون المال لا يولد مالاً بل لا بد من استثماره والعمل به.

٦) حرم الله الربا والفائدة، وجعل لها بدائل عدة (كل أنواع الاستثمارات المباحة).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١) إحياء علوم الدين لابي حامد الغزالي ت (٥٠٥) هـ ، دار ابن حزم / بيروت لبنان، ط / ١ ، ٢٠٠٥ م .

٢) أسس ومبادئ النقود والبنوك، كلية التجارة محمود محمد نور، جامعة الأزهر، مصر، ب. ت .

٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابي عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية ت (٧٥١) هـ، دار الكتب العلمية، ط/١، ١٤٤١ هـ.

٤) الاقتصاد النقدي والمصرفي مصطفى رشدي شيحة، الدار الجامعية، ١٩٨٥.

٥) اقتصاديات النقود والبنوك حافظ محمود شلتوت، جامعة الزقازيق مصر ١٩٩٠.

٦) اقتصاديات النقود والمصارف ربيع محمود الروبي، دار الحقوق. مصر١٩٨٦.

٧) الذهب واقعه وتوقعاته، قسم البحوث والدراسات الاقتصادية، منتدى الاعمال الفلسطيني/ ٢٠١١ .

٨) زكاة حلي الذهب والفضة والمجوهرات ، الدكتور محمد عثمان شبير ، مكتبة الفلاح / الكويت ، ط / ١ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ .

٩) سنن الترمذي محمد بن عيسى الترمذي ت (٢٧٩) هـ، مكتبة البابي الحلبي / مصر، ط/ ٢ / ١٩٧٥ م.

١٠) في الاقتصاد السياسي، النقود والنظم النقدية فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٨٩.

١١) النقود الإسلامية كما ينبغي ان تكون ، بحث للدكتور عبد الجبار حمد عبيد السبهاني، كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية ، جامعة أهل البيت / عمان.

١٢) النقود في الاقتصاد الإسلامي ، للأستاذ الدكتور رفيق يونس المصري، دار المكتبي/ القاهرة ، ط / ١ ، ٢٠١٣ .

Henri Guitton, La monnaie, Dalloz, 3eme ed, 1974.

Abstract:

In the name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon the best of the prophets and messengers, and upon his family and companions and those who follow his guidance until the Day of Judgment. And after that, since Allah began creation and brought them to earth, people needed a system of exchange, because every person has a specific profession that he practices, such as hunting, agriculture, herding animals, and also building in its first primitive ways. So every craftsman and trader needed something from another person. The farmer needs meat and needs a place to shelter him, and the one who hunts animals needs a house to shelter him and needs what the farmer harvests. So Allah facilitated for them the first primitive method of exchange, which is what is known as the (barter) system. It is a primitive system that depends on each person exchanging what he obtains to another person to give him from the produce of his hands. Then barter developed, as the person who hunts and takes risks is not like the person who harvests crops near his house, which led to thinking about the element of risk, so the one who hunts offers a small amount in exchange for a large amount of vegetables. The barter system continued until Man found a specific element that could be a standard of exchange, which are precious metals. The two most famous metals known to mankind for exchange are (gold and silver). no less important than the importance of man's discovery of the alphabet, or his discovery of the means of obtaining fire according to his will and desire. Without money, the flow of trade would have turned into a thin thread. Without it, every family would have stored everything it owned instead of buying its needs from central stores.